تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص

المحاضرة الحادية عشر

بطولة يعقوب وشكوى عاجلة

المقدمة

"الملتزم الحقيقي.. دروس من يوسف عليه السلام في الثبات والعزة"

في قوله تعالى:

{ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ }

نتوقف عند عدة تأملات عظيمة تحمل معاني تربوية وعقائدية راقية.

أولًا: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ }

- **تأمل هذا النداء! كيف أن الله عز وجل أعز يوسف عليه السلام، وجعله موضع احترام ورفعة، بعد أن أراد له إخوته الذل والمهانة. سبحان الله ! الآن هم بأنفسهم يخاطبونه بلقب { ٱلۡعَزِيزُ }**
- **ومن اللافت أن منصب يوسف في مصر لم يُعرف بلقب "الوزير" أو "القائد"، بل كان "العزيز" – لقبًا اختصه الله به، وكأنها رسالة خفية: الله هو الذي يهب العزة لمن يشاء، ولو اجتمع الخلق لإذلاله.**

ها هم الآن يقفون أمام يوسف عليه السلام، في ذلٍ ومسكنة، يخاطبونه بما لم يكونوا يتمنون له، ولكن إرادة الله نافذة، {وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ}

- **وهكذا نُدرك أن العزة في طاعة الله وحده، كما قال سبحانه:**

{ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ }

{ مَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ}

{ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}

وقال النبي ﷺ: "وجُعل الذل والصغار على من خالف أمري"، فإن الذل في المعصية، ولو في الظاهر حرية وسعة، والعزة بالطاعة، ولو في ضيق وسجن. فقد كان يوسف عزيزًا حتى في السجن.

ثانيًا: { إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخٗا كَبِيرٗا }

هنا نراهم يتوسلون، يتكلمون بعاطفة ورحمة تجاه أبيهم، ويتوسلون بضعف الشيخ الكبير يعقوب عليه السلام. ولكن السؤال:

- أين كانت هذه الرحمة؟ أين كانت هذه الشفقة، حين ألقوا يوسف في البئر؟
- أين كان قلبهم من قبل، حين فرقوا بين الأب وفلذة كبده دون رحمة؟
- سبحان الله! تناقض عجيب، يتذكرون الشيخ الكبير اليوم، ويستعطفون به، بعدما لم يعبؤوا ببكائه ولا بحزنه من قبل.

هم لا يحبون بنيامين، لكنهم يخشون كسر أبيهم وخيانة الميثاق الذي أخذوه على أنفسهم. فهم يحاولون النجاة، لا حبًا في أخيهم، بل حرصًا على صورتهم أمام أبيهم، ورغبة في أن لا يُفتضح أمرهم أكثر.

ثالثاً: { إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ }

ما أعجب هذا التعبير!

قالوها وهم لا يعرفون أنه يوسف، وقالها قبله السجناء حين رأوه في محبسه.

وفي كل أحواله، سواء في بيت امرأة العزيز، في السجن، أو وهو عزيز مصر، تكررت الشهادة: { مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ }النسوة قلن عنه: { مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ } وقالوا: { إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ }

- ثبات على الطاعة، ثبات على الخلق، ثبات على الإحسان، مهما تغيّر المكان والزمان والحال.

يوسف هو هو، في المحنة والمنحة، في القاع وفي القمة، في البئر وفي القصر، في السجن وفي الملك.

وهذا هو التعريف الحقيقي للـ"الملتزم"

- الملتزم الحقيقي هو الذي لا يتلون، لا يتبدل، لا يتغير حسب الظروف أو الأمكنة أو الناس. هو هو، في المسجد، في البيت، في الجامعة، في السوق، في الفرح، في الغضب، في السر، في العلن.
- الملتزم ليس من له وجه أمام الناس، وآخر في بيته، تراه لطيفًا في المسجد، وأمه تقول: "هو في البيت لا يصلي، عصبي، لا أخلاق له".
- ولا هي التي يقال عنها: "أخت فاضلة"، بينما زوجها وأولادها لا يرون منها شيئًا من هذه الفضل.
- الملتزم الحقيقي هو الذي يُعامل الله، لا يُمثل أمام الناس، ولا يرتدي قناعًا في المناسبات.

يوسف عليه السلام يُعلمنا أن الاستقامة ليست موقفًا عابرًا، بل هي حالة دائمة، ثابتة، لا تتغير.

الإحسان لا يُبنى على الظروف، بل ينبع من القلب المتصل بالله.

"من محنة يوسف إلى دروس في الإحسان والرحمة والعدل"

في قوله تعالى: { إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ } تتجلّى شهادة عظيمة في حق يوسف عليه السلام، صادرة هذه المرة من إخوته الذين ما عرفوه بعد. العجيب أن يوسف كان محسنًا حتى وهم يعرفونه، لكنه لم يُرَ كمحسن في أعينهم يومًا، لأن عين الحقد والحسد لا ترى المحاسن، بل تبحث عن العيوب ولو لم تكن موجودة. تلك هي طبيعة البغضاء، تُعمي البصيرة وتشوه الصورة، فلا يُبصر المحسنون إلا في غياب الحسد.

- ومن الفوائد فى قولهم: { إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخٗا كَبِيرٗا } أنهم استعطفوا يوسف بذكر حال أبيهم، يعقوب عليه السلام، وما يتحمله من ألم الفقد، غير أنهم تناسوا أنهم هم أنفسهم مَن مزق قلب هذا الأب، حين ألقوا بابنه في غياهب الجب دون رحمة.

- فيا للعجب من قلوب أقسى من الحجر، ثم تتظاهر الآن بالرحمة، وهي من قبل لم تُبدِ أدنى شفقة على نفس الشيخ الكبير.

- وهنا دعوة للتأمل: من كان له أب شيخ كبير، فليتأدب معه، وليتحمله، حتى وإن كبر وصار سريع الغضب، ضيق الخُلق. فإن بلغ الكِبَر، وجبت عليك الرحمة أكثر من أي وقت مضى، قال تعالى: { إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ }

- ومن الدروس العميقة كذلك: حين أُخذ بنيامين، لم يكن هو المتألم فقط، بل الأب المسكين كان الأشد ألمًا. وهذا يفتح أعيننا على حقيقة أن السجن لا يوجع المسجون وحده، بل يُمزق قلوب من يحبونه. لذا، فليتقِ كل صاحب سلطة في قراراته، فإن ظلم شخصًا واحدًا، فقد ظلم أسرًا من حوله. وقد يُفقد والد بصره من شدة الحزن، أو تمرض أمٌ من وجع الفقد.

- وهذه رسالة أيضًا للشباب: لا تُعرض نفسك للسجن بتهور أو ذنب. سرقة، مخدرات، سلوك شائن... كلها طرق تُؤذي بها نفسك، وتكسر بها قلوب أهلك. فإنك حين تُسجن، لست وحدك من يتألم، بل والديك، إخوتك، أسرتك بأكملها. فرجاءً، فكّر ألف مرة، فالخطأ لا يدمرك وحدك.

وأخيرًا، وقفة مع قول يوسف عليه السلام: { مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ }

- كلمات من نور، تفيض عدلًا وإنصافًا. لم يقل "من سرق"، بل قال { مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا } ، إشارة دقيقة إلى براءته من التهمة، مع الحفاظ على صدق القول. ثم يُقرر قاعدة عظيمة: لا يجوز أخذ أحد بجريرة غيره، فهذا هو عين الظلم. رسالة واضحة لرفض ثقافة الثأر الظالم، حين يُقتل البريء بدل الجاني، فهذا جُرم لا يُرضي الله، بل هو ظلم فوق ظلم.

- هكذا يُعلّمنا يوسف عليه السلام دروسًا خالدة: في الإحسان رغم الجفاء، والرحمة رغم القسوة، والعدل رغم القوة.

{مَعَاذَ ٱللَّهِ }: حين يكون اللجوء إلى الله هو الحصن من فتنة المُلك وظلم القرار

في قوله تعالى: { مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ }

تتجلى ملامح شخصية يوسف عليه السلام في أبهى صورها: الإيمان، والعدل، واللجوء الصادق إلى الله. فما إن اشتدت عليه الفتنة، واشتعلت داخله الصراعات، وبرزت أمامه سطوة السلطة، حتى لجأ إلى الحصن الآمن، إلى الله سبحانه وتعالى، بكلمة تهتز لها القلوب: {مَعَاذَ ٱللَّهِ } .

- فالسلطة قد تفتن الإنسان كما فتنت امرأة العزيز، تغريه كما قالت: { هَيۡتَ لَكَۚ }، وتُشعره أن بكلمة واحدة منه يمكنه أن يُسجن أو يُهين أو يُنهي حياة إنسان. يوسف، على الرغم من امتلاكه السلطان، أبى أن يُستدرج إلى هاوية الظلم، واستعصم بالله من أن تزل قدمه تحت إغراء المُلك. {مَعَاذَ ٱللَّهِ } ليست مجرد عبارة، بل درع إيماني يصد عن القلب غوائل الشهوة والانتقام.

-هذه الكلمة رسالة لكل من يملك أمر الناس: حاكمًا، قاضيًا، مديرًا، أو مسؤولًا. احذر من فتن الكلمة. فإن قرارًا واحدًا قد يُشعل حربًا، وقد يسجن إنسانًا ظلمًا، وقد يُحطّم أسرًا بأكملها. فلتكن الكلمة موزونة بعدل وهدى، مستحضِرًا عظمة الله الذي لا يرضى بالظلم. واحذر من الكلمة التي تُلقى بلا مبالاة، فتكون سببًا في دمار الآخرين.

ثم ينتقل بنا المشهد إلى قوله تعالى: { فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ }

هنا وصف دقيق للحظة الانكسار. { ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ } لا تعني مجرد "يأسوا"، بل توحي بأنهم بذلوا جهدًا هائلًا، استنفدوا فيه كل وسائل التأثير، وكل الحيل الممكنة. جربوا كل شيء، وقالوا كل ما يمكن أن يُقال، حتى بلغوا أقصى درجات اليأس، عندها { خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ } ، أي

انفردوا عن الناس ليعقدوا مجلسًا سريًا يناقشون فيه المصيبة الكبرى التي حلّت بهم: كيف يعودون إلى أبيهم دون أخيهم؟

- تلك اللحظة كانت فاصلة، كشفت عن ندمهم الحقيقي، وحرصهم على الوفاء بالميثاق الذي قطعوه لأبيهم. لم يكن الأمر هيّنًا، بل كان الميثاق ثقيلاً على كواهلهم، يذكّرهم بما فرّطوا فيه من قبل حين أضاعوا يوسف.

ويظهر في هذا المشهد (يوسف ٨٠) { فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا } { قَالَ كَبِيرُهُمْ }، الذي اختلفت الروايات في اسمه، فقيل رويل، وقيل يهوذا، وقيل إنه الأفضل حالًا بينهم، وهو نفسه من قال قديمًا: { لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ } ، واقترح إلقاءه في الجُب. هو صوت الضمير بينهم، يعود ليذكّرهم مجددًا بعهودهم:

{ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ }

- هكذا ينبض النص بالندم، والحسرة، والعودة إلى ضمير حيّ لم يمت رغم الذنوب، في محاولة لتدارك خطأ الماضي، وتحمّل تبعات الحاضر.

- كل مشهد في هذه القصة درس بليغ، من يوسف الذي استعصم بالله وهو في ذروة السلطة، إلى إخوةٍ تعلّموا كيف يكون الوفاء بعد التفريط. فسبحان من جعل القرآن نورًا وشفاء، وهدايةً لمن أراد أن يعتبر.

"بداية النور بعد طول الظلمة: حين توقظ المصائب القلوب"

- يا سلام! هنا بدأت بوادر الخير تلوح في الأفق، لحظة فارقة في القصة، لحظة إيقاظ من الغفلة! ويعود بنا المشهد إلى حقيقة جليلة: أن الله يقدّر المصائب للناس لعلهم يرجعون. فمصيبة بنيامين جاءت فجأة، مع ثِقل الميثاق الذي قطعوه لأبيهم، لتوقظ فيهم إحساسًا طال خفوته، وتجبرهم على مواجهة أنفسهم.

لكن التوبة لم تأتِ دفعة واحدة، بل جاءت مرحلية، متدرجة، كما هو حال كثير من البشر.

إخوة يوسف تعرضوا لعدة صدمات: اختفاء بنيامين، حزن أبيهم الشديد حتى ابيضّت عيناه، ثم لقاؤهم بيوسف لاحقًا، وعفوه عنهم، كلها أحداث راكمت أثرها في قلوبهم، حتى بدأت تظهر أولى علامات الخير.

لأول مرة يظهر الاعتراف الحقيقي: { مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ } هذا اعتراف نابع من عمق الندم، وتجلٍ لمحاسبة النفس، وشعور بمراقبة الله عز وجل. وذِكرهم { مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ } يؤكد أنهم بدأوا يدركون أن الله حاضر في حياتهم، يراقب، ويحاسب، ويعلم. وهذا الاعتراف هو أولى خطوات التوبة، والندم هو بداية الطريق إلى الصلاح.

ولأول مرة كذلك، لا نجد منهم إنكارًا أو جدالًا، بل صمتًا مُقرًا، وسكوتًا يتحدث بصدق التوبة، حين قال كبيرهم: { فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ } تأمل هذا التطور العميق في القلوب! بدأوا يستشعرون أسماء الله وصفاته، وبدأت قلوبهم تتعلّق بالله، بصفاته العظيمة: الحكم، الرحمة، العدل، اللطف. لأول مرة منذ بداية القصة، يتحدثون عن الله بلسان الخضوع: { وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ } وكأن النور بدأ يتسلل إلى أعماقهم.

- **فهنا تظهر الخطوة الأولى لأي عبد صادق في توبته:** مراقبة الله، محاسبة النفس، والارتباط العميق بأسماء الله وصفاته.

- من عرف الله حق المعرفة، لم يعصه. من شهد أن الله الرقيب، استحيا أن يخالفه، ومن عرفه بـ الغفور الرحيم، سارع إليه تائبًا، ومن عرفه بـ العزيز المنتقم، خافه، ومن عرفه بـ الودود الجميل، أحبّه.

- كل أحوال العبد، من صلاح أو ضياع، مرتبطة بعلاقته بالله، وبقدر قربه من أسماء الله وصفاته. فهذه هي جنة الدنيا التي تحدّث عنها السلف، جنة القرب من الله، والعيش في ظلال رحمته وصفاته، فهي الراحة في الشدة، والنور في الظلمة، والسكينة وقت الفوضى.

ويا للعجب! هذا الخير الذي بدأ يظهر لم يكن ليأتي لولا أشد لحظات الألم والابتلاء.

فلما ابتلوا في بنيامين، وزاد الخوف بعدم رجوع أخيهم الكبير، كان ذلك أشد المواقف عليهم، لكنه في الوقت ذاته، كان مفتاحًا للفرج.

-وهكذا دائمًا، مع العسر يُسرًا، ومع الكرب فرجًا، ومع كل ألمٍ حكمةٌ من الله لمن فهم الرسالة.

تأمل حال الأنبياء:

لوط عليه السلام، جاءه الفرج في أحلك يوم، حين قال: { هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ }

إبراهيم عليه السلام، أُنقذ من النار في لحظة الإلقاء.

موسى عليه السلام، انفتح له البحر عندما حُصر بينه وبين جند فرعون.

كلما اشتد الكرب، اقترب الفرج. لكن لمن؟ لمن فهم الغاية من الابتلاء، لمن تاب، وأصلح، وندم، واستشعر عظمة الله، وتعلّق به تعلق المحب المستغيث، الراجع الآمل.

- فإن اجتمع الكرب مع صدق التوبة، واستيقاظ القلب، ويقظة الروح، واستحضار صفات الله، فابشر! لقد آن أوان الفرج، تمامًا كما حدث ليعقوب عليه السلام حيث قال {عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ }

سبحان الله! هذا هو الحال.. وهذا هو الطريق.

بوادر التوبة وبدايات الفرج في رحلة إخوة يوسف

بدأت ملامح التوبة الصادقة تظهر في قلب الأخ الأكبر، حين قال: { فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ } تلك الكلمات ليست مجرد موقف عابر، بل تعبير عن ندم عميق، وتحوّل جوهري في داخله؛ إذ لم يعد يقوى على مواجهة وجه أبيه، ولم يعد يرجو إلا عفو والده أو قضاء الله العادل. ففي قوله { يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ } تجلٍ لمعاني التوكل، وبدء التعلّق بحكم الله وعدله، بل وبأسمائه الحسنى، { وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ}

- هذا الموقف كان بمثابة البذرة الأولى لتوبة حقيقية بدأت تنبت في قلوب إخوة يوسف، ستكتمل لاحقًا بلقاء يوسف عليه السلام. بدأت القلوب تفيق من غفلتها، وظهر بوضوح أن من أراد رضا والديه فعل المستحيل في سبيل ذلك، وهذا ما أظهره الأخ الأكبر برفضه العودة دون إذن والده.

ثم تأتي كلماتهم لأبيهم:

{ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ }

وهنا تكمن عدة دلالات:

١- **قسوة الألفاظ:** حين كانت مصلحتهم مع بنيامين، قالوا: { أَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا }، أما الآن، بعدما وُضع في موضع الاتهام، صار { ٱبۡنَكَ سَرَقَ }، وكأنهم يلقون باللوم ضمنيًا على يعقوب، وعلى تربيته. وهذا يُذَكِّرنا بسلوك شائع في حياتنا اليومية، حينما يُخطئ الطفل، يُقال: "ابنك عمل كذا"، وحين يُحسن: "شفت ابني؟!". سلوك فيه جفاء، ينبغي تجنّبه.

٢- **الاعتراف بالحدود:** قولهم { وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا } ، { وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ } وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ"* يدل على أنهم بدأوا يستشعرون خطورة الشهادة على ما لا يعلمون. هم الذين أقروا أن من يُتَّهَم بالسرقة يؤخذ عبدًا، وهم الذين ظنوا يقينًا أن بنيامين بريء، فاستندوا إلى ما علموه، لا إلى غيبٍ لا يدركونه. لكنهم شعروا بالندم على استعجال الحكم، وقالوا ما قالوا بشعور بالذنب.

وهنا تبرز قاعدتان مهمتان في حياة الإنسان:

- **ألّا يشهد إلا بما يعلم:** لا تتسرع في تزكية أحد أو الشهادة له أو عليه، ما لم تكن على علم حقيقي ودقيق. سواء في تزكية عريس، أو شريك تجاري، أو حتى في حديث عابر. قل الحق الذي تعلمه فقط، واصمت عما تجهله.

- الحذر من المجاملة في التزكية: كثيرًا ما تُغلب العاطفة على الموضوعية، خاصة في تزكية الفتيات لبعضهن، فيُمدح أحدهم مدحًا مفرطًا لا يستند إلى واقع. وهذا نوع من الخيانة في النصيحة.

- وأخيرًا، نستشعر أن التوبة الصادقة لا تكون دفعة واحدة، بل تأتي تدريجًا، كما حدث مع إخوة يوسف. تبدأ بندم، ثم وعي، ثم اعتراف، ثم توكّل، ثم تجرّد من المكابرة، ثم سعي لإصلاح العلاقة مع الله ومع الخَلق. وما إن تجتمع هذه المعاني، حتى يبدأ الفرج في التجلّي، تمامًا كما قال تعالى:{ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا }

الصدق، وشؤم الكذب، وصبر يعقوب الجميل

- يُكمل إخوة يوسف محاولاتهم لإقناع أبيهم يعقوب عليه السلام، قائلين: { وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ }. أي اسأل أهل مصر، واسأل القافلة التي رافقناها، لتتيقن أننا لم نكذب. لكن يعقوب عليه السلام يعلم أن الكاذب إذا عُرف بالكذب لا يُصدق، ولو كان صادقًا في مرة من المرات، وهذه من شؤم الكذب، أن صاحبه يُجرد من الثقة حتى في مواضع صدقه.

- ويعلم يعقوب عليه السلام أن هذا الموقف شديد الشبه بما حدث من قبل مع يوسف، ويسترجع وعودهم التي لم يوفوا بها: { وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ }. ثم يكررونها هنا: { وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ }. فما الجديد؟! الموقف نفسه والكلمات نفسها، فلا لوم عليه إن لم يصدقهم، وهذا ما جعلهم يُحيلونه إلى وسيلة غير عملية، إذ كيف له أن يسافر إلى مصر ويسأل أهلها أو يلحق بالقافلة وقد انطلقت؟!

- وهنا تظهر قاعدة مهمة: "ما يُغني التأكيد عن من جُرِّب عليه الكذب"، فمن فقد مصداقيته، لا تنفعه كثرة التأكيدات. ولهذا، يُضرب المثال من علم الحديث، حيث من كذب مرة على النبي ﷺ، يُرفض حديثه تمامًا، ولو قال الصدق بعد ذلك، لأن العدالة قد سقطت، والكذب لا يغتفر.

- ويُظهر يعقوب عليه السلام حُسن الظن بالله رغم كل المحن، فيقول: { بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ }. لقد فقد ثلاثة من أبنائه، وليس واحدًا فقط: يوسف، وبنيامين، والأخ الكبير الذي قرر ألا يعود إلا بإذن أبيه. ومع ذلك لا يتذمر، ولا يشكو إلى أحد، بل يُجسد أعظم صور الصبر الجميل؛ صبر بلا شكوى، ولا اعتراض، ولا جزع، بل صبر مُطعّم بالرضا والتسليم لله.

- ورغم مرارة الألم، إلا أن الله يُنزل على قلب عبده المؤمن برد السكينة، وحلاوة الإيمان التي تُغلب مرارة الصبر، فيشعر بلذة الإيمان، وطمأنينة لا توصف. وهذا حال من صبر لله، ورضي بقضائه، فالسكينة منحة إلهية لا تُرى، لكنها تُذاق، و"من ذاق عرف، ومن عرف لا اغترف".

- هذا هو مقام يعقوب عليه السلام، صابرًا محتسبًا، رغم تراكم الأحزان، صابرًا صبرًا جميلًا، ومتيقنًا من أن الله لا يُضيع أجر المحسنين.

أدب الصبر وفهم حكمة الابتلاء في قصة يعقوب عليه السلام

قال: { فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ }. سبحان الله! صبر يعقوب ليس صبرًا عاديًا، بل هو صبرٌ جميل؛ صبرٌ بلا شكوى، صبرٌ يعبّر عن حسن ظنٍّ بالله، وثقة في حكمته، وتوكل عليه رغم انعدام الأسباب. فحين يعظم البلاء، تكون الفرصة سانحة ليرى الله من عبده تضرعًا، وليرى منه صدق التوكل في قلب المحنة. الله لا يبتلي عبده إلا ليسمع منه، ليرى منه ما يحب: من خضوع، ورجاء، ويقين.

- الله أرحم بالعبد من أمه، فكيف يُسيء العبد الظن بمن هو أرحم به من قلب أمه؟! كل ألم يحمله بين طياته أمل، وكل ابتلاء خلفه جبر. يُبتليك الله ليطهّرك، ليعافيك، ليعطيك. وقد يُحرَم العبد من محبوب، ليُرزق بأفضل منه من حيث لا يشعر، جزاء لصبره ورضاه. فإن الله لطيف، لا يُجري أمرًا إلا لحكمة، ولا يختار لعبده إلا الخير، وإن جهل العبد ذلك في حينه.

- يعقوب عليه السلام فهم هذا كله. فهم حكمة الله: {أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ، فهم لغة التعامل مع الله، فاستقبل البلاء بالصبر، ولم يُخاصم القدر، بل تعامل معه بما يرضي الله. هذه هي مدرسة الأنبياء؛ تعليم الناس كيف يفهمون رسائل الابتلاء، ويتعاملون معها، فينجحون في امتحانات الله.

- كل ابتلاء له غاية، ومتى تحقق المراد، رُفع البلاء فورًا. تمامًا كما فهم إسماعيل رؤية أبيه، فأذعن: {يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ}، فتحققت الطاعة، فجاء الفرج: { قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ }.

- كذلك في قصة أصحاب الجنة حين تابوا، فأمَّلوا في التعويض: { عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ }. فهم الرسالة شرط، وتنفيذ المطلوب طريق الفرج.

- يعقوب عليه السلام فهم المطلوب منه: صبر جميل، فانتقل بعده إلى الرجاء، لأنه فعل ما عليه، وبكل يقين قال: { عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ } لقد أحسن الظن في أرحم الراحمين، وتعلّق بأسمائه وصفاته: العليم، الذي لا يبتلي إلا بعلم، والحكيم، الذي يضع كل شيء في موضعه.

- ألمُ يعقوب كان شديدًا، لكن ما ترتّب عليه من رفعة، وصبر، وتعليمٍ للبشرية، أعظم بكثير من تلك اللحظة القاسية. كل ألم صبر عليه يعقوب، صار بعده درسًا لنا، ومصدرًا للأمل. في كل بلاء، الله يسمع دعاءك، ويريد أن يراك في حالٍ يرضيه. إن فهمتَ حكمة الابتلاء، واستقبلتَه بالأدب، والرضا، والصبر، استحقيت الفرج.

- شاهد عظمة أدب يعقوب! في أشد لحظات المصيبة، يقول عن الله: {إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ}. لا جزع، لا لوم، لا "لماذا يا رب؟"، بل ثناء على الله، ورضا به، وإيمان بحكمته. هذا هو أدب البلاء، أدب التعامل مع الله حين تشتد المصيبة. فهل نتعلّم هذا الأدب العظيم؟

"يا أسفَى على يوسف: دروسٌ في الرجاء، والألم، والقدوة"

- حين قال تعالى: { وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ } ، تسكب الآية مشهدًا من أعمق مشاهد الألم الإنساني، والأدب مع الله، والرحمة الأبوية.

- في هذه اللحظة، يعقوب عليه السلام كان لا يزال يحمل حسن الظن بالله رغم عِظم المصائب، وحين تحقق ما تمناه من عودة أبنائه، أكرمه الله بأكثر مما كان يتخيل: رجعوا تائبين، ورُدّ له بصره، وعاش في عزّ وملك.

- **فوائد من حسن الظن بالله:**
  - يعطيك الله فوق ما تريد إذا أحسنت الظن به.
  - ادفع ما عليك، ثم قُل كما قال يعقوب: { عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ } .
  - كمال العبودية أن يكون لديك يقين في الفرج حتى مع توالي الشدائد وانعدام الأسباب.
  - لم يتحطم يعقوب، بل ازداد يقينًا بقرب الفرج، لأن عاقبة الصبر جبر.

- **أبوة يعقوب**

يعقوب عليه السلام لم يشتم أبناءه، ولم يدعُ عليهم رغم جُرمهم، بل كان رحيمًا يرجو توبتهم. هذه هي الأبوة الرحيمة التي تصبر وتؤمن بالعودة حتى بعد أربعين سنة من الغياب. في حين أننا نرى اليوم آباءً وأمهاتٍ لا يصبرون لحظة، يعاقبون أبناءهم بأقسى الألفاظ وربما بالدعاء عليهم، ولا يعلمون أن الأمل لا يُقطع.

- **وتولى عنهم...**

يعقوب لم يُرِد أن يرى أحدٌ دموعه، فالرجل لا يحب أن يُظهر ضعفه، كما أن الكسرة لا تُظهَر إلا لله. كم نحن بحاجة إلى "خلوة حزن" بيننا وبين الله، نشتكي إليه، ونبكي بين يديه، ونعود بأرواح لملمتها رحمته.

"يا أسفَى على يوسف"... لماذا يوسف؟

المفترض أن يقول "يا أسفى على بنيامين"؛ لأنه هو الذي فقده للتو. لكنه قال "يوسف"، لأن المصيبة الأصلية لم تندمل أبدًا. يوسف لم يكن فقط ابنه، بل مشروع أمة، أمل دعوي، حلم رسالي. كان يرى فيه من يحمل همّ الرسالة، وأبناءه العشرة لم يسدّوا هذا الفراغ.

الأسف على القدوات...

- يعقوب يتأسف على ضياع رجل كان يمكن أن يكون قائدًا. وهذا هو الحزن الذي لا يفهمه إلا أصحاب الهمم العالية: الأسف على فقد العلماء، على تغييب المصلحين، على غياب الرجالات الذين يُعوَّل عليهم.
- وهكذا كان عمر بن الخطاب يبكي عند سماع هذه الآية في صلاة الفجر، يبكي بحرقة؛ لأنه كان يستشعر حجم الخسارة عندما يُفقد القائد الصالح، حين يُغيَّب الصادقون، ويُفتَقَد أصحاب الرسالة. وكان عمر يتمنى أن يمتلئ بيت المسلمين برجال أمثال أبي عبيدة، وسالم، وحذيفة... لا لأجل الدنيا، بل لأنهم يحملون همَّ الأمة.

يا أسفاه على يوسف...

- هي صرخة كل مؤمن يفتقد المصلحين، ويتألم لغياب من يحملون أمانة الدين. هي دعوة لنا أن نكون من هذا "الواحد من الألف" الذين يُرجى على أيديهم صلاح الأمة.

كن أنت هذا الرقم.

كن من الذين تتأسف الأمة على غيابهم، وتستبشر بحضورهم، ويكتب الله بهم التغيير.

{إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ}

"يا أسفاه على يوسف: حزن الأنبياء، ورجاء المؤمنين"

"يا أسفاه على يوسف"...

- تفيض هذه الكلمة بأوجاع يعقوب عليه السلام، لكنها ليست فقط نداء حزن، بل رسالة تسلية لكل مهموم، أن الأنبياء بشرٌ مثلنا، يعرفون الألم، ويبكون، ويتأسفون، ويشتد بهم الوجع، لكنهم يُحسنون التوجّه إلى الله.

فهذا يعقوب: { وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ }

وهذه مريم: { يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا }

وهذا لوط : { إِنَّ هَٰذَا لَيَوْمٌ عَصِيبٌ }

هم بشر لهم مشاعر، لكنهم ما عرفوا إلا باب الله في شكواهم، فكانت شكواهم إليه، لا منه.

"يا أسفاه على يوسف" ليست تذمُّرًا، بل دعاء؛ نداءً رقيقًا لله أن يرحم ألمه، أن يُطفئ نار الشوق، أن يُعيد الابن الغائب.

ومَن ذا الذي يحزن إلا مَن يعرف قدر المفقود؟

أما من لا يعرف قدر يوسف، فسيقول: لماذا كل هذا الحزن؟

لكن يعقوب عليه السلام لم يفقد فقط ابنًا، بل فقد أملاً، مشروع نبي، حاملًا للرسالة، فكان حزنًا على قدر الهمّ الذي يحمله.

وما بالكم بمن فقد أولاده وهو متيقّن أنهم لن يعودوا؟

ما بالكم بقلوب أمهات غزة، وآباءها؟

أولادهم يُسحَقون تحت القصف، تحت الركام، أمام أعينهم، بلا حيلة، ولا رجعة.

اللهم فرّج عنهم، وعن كل من فُجع بحبيب أو ولد، وردّ كيد الظالمين في نحورهم.

ثم قال تعالى: { وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ }

- ما أشد هذا الوصف!

أن يبكي حتى يفقد بصره...

أيُّ بكاءٍ هذا؟!

أيُّ ألمٍ تحمّله الجسد؟

أيُّ وجعٍ هذا الذي أصاب قلب يعقوب؟!

{ فَهُوَ كَظِيمٞ } يعني يكتم حزنه، لا يشكو، لا يصرخ، لا يئنّ... فقط دموعه تنطق بما لا يستطيع لسانه أن يعبّر عنه.

يكتم الألم حتى لا يراه أحد، حتى لا يضعف أمام البشر، ولكن عينه كانت مرآة ألمه، حتى ابيضّت من كثرة البكاء.

قالوا: "كظم لسانه، فتكلمت عيناه"،

وهذا أشق ما يكون : حين تُمنع الكلمات، وتتكلم العيون وحدها.

تسكن الكلمات، لكن الدمع يبوح، والصدر يضيق، والنفس تختنق، والشكوى لا تكون إلا لله.

ورغم كل هذا الألم، ما نطق يعقوب عليه السلام بسخط أو اعتراض.

ما قال: لماذا يا رب؟

بل زاد رجاؤه، وازداد يقينه بفرج الله، ولم يتزحزح أمله.

هذا هو الحزن النبيل، وهذا هو الصبر العظيم، وتلك هي الثقة الكاملة بالله.

عبادة الشكوى إلى الله ودموع الأنبياء

{ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ }

في هذه الآية دلالة عظيمة على أن الحزن لا يتعارض مع الرضا بقضاء الله، ولا البكاء ينافي الصبر الجميل.

فبعض الناس إذا رأوا حزينًا على فَقْدِ حبيب، أنكَروا عليه البكاء، وقالوا له: **لا تبكِ! احمد الله!**

وكأن البكاء مخالفة للرضا، وهذا غير صحيح.

الرسول ﷺ نفسه بكى لموت ابنه إبراهيم بكاءً شديدًا، فلما تعجّب الصحابة قال:

"هذه رحمة، يجعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، إنما يرحم الله من عباده الرحماء."

وقال:

"إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا."

- فالبكاء رحمة، والحزن طبيعة بشرية، لكنه لا يناقض الرضا بالله، ما دام القلب ساكنًا ومطمئنًا بقضاء الله، شاكرًا في أعماقه، مستسلمًا لحكم ربه.

في الآية أيضًا، ألم شديد يعصف بيعقوب عليه السلام حتى أفقده بصره، ومع ذلك، بقي صابرًا، محتسبًا، راضيًا بالله، ومكظومًا لا يشكو إلا إليه.

- ويُقال إن من أشدّ المشاهد حزنًا، أن يعقوب عليه السلام فقد عينه التي كان يرجو بها رؤية يوسف، لكن رحمة الله وسعت ظنّه، فعاد إليه يوسف، وعاد إليه البصر.

{ كَظِيمٌ } ساكت، كئيب، محزون.

وقد قيل: "ابيضّت عينا يعقوب من الحزن على يوسف، ولم تبيضّ عينا يوسف من الحزن على يعقوب"، والسبب؟

- لأن حزن الوالد على ولده أشدّ بكثير من حزن الابن على أبيه.
- فلْيُدرك الأبناء قدر آبائهم وأمهاتهم.
- فقد الوالد لابنه نار لا تُطفأ، ووجع لا يندمل.

في قلب كل أب وأم حبّ ورحمة وتعلّق لا يُدركهما الأبناء مهما بلغ حبهم.

{ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ }

عجبًا لهم!

هم سبب الحزن، ثم يلومونه عليه!

"آذَوه، ثم لاموه لما تألّم!"

كمن يضربك، ثم يلومك إن صرخت!

- فحتى حزنه استكثروا عليه! حتى بعد ذهاب بصره، لم يرحموه، ولم يخفّفوا عنه، بل زادوا ألمه بعتابهم القاسي!

وهكذا الحسد، يعمي القلوب عن كل رحمة.

وتأتي من هذه الآية لفتة مؤثرة:

- هناك أشخاص لا يمكن نسيانهم، ولا يمكن أن يسكن مكانهم أحد.
- فإذا رحلوا، ظلّت قلوبنا شاغرة، وذكراهم لا تفارق الوجدان.

فكان رد يعقوب عليهم جليلًا، عظيمًا، حاسمًا:

{ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ }

كأنما يقول:

- **أنا لم أشتكِ إليكم، ولم ألجأ إلى أحد سواه.**
- **أنا أشكو إلى الله وحده، أعبّر له عن ألمي، ولا أطلب منكم شيئًا.**

وهذا تمام التوكل، وكمال التسليم.

فعبادة الشكوى إلى الله من أجلّ العبادات، ومن أوسع أبواب القرب منه.

قد يبتليك الله ليأخذك بهذا الباب إليه، فيراك ترفع يديك في ظلمة الليل وتقول: "يا رب، لا أشتكي لأحد سواك."

وإذا صدقت هذه الشكوى، جاء الفرج من حيث لا تدري.

{ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ }

- وما أعظم الطمأنينة التي تملأ قلب العبد حين يشكو بثّه وحزنه إلى الله وحده.

الشكوى إلى الله مقام عظيم من مقامات العبودية، لا يُدرِك قدره إلا من تذوّقه بصدق، ولامس برد الطمأنينة بعده. حين يضيق صدرك، وتغلق أبواب الناس، تذكر أن السماء لا تغلق أبوابها أبدًا. الله يحب أن يسمع شكواك، يحب أن تبكي بين يديه، أن تُفرغ ما في قلبك له وحده، لا لأحدٍ من خلقه.

- هكذا كان حال يعقوب عليه السلام، لما اشتد حزنه على يوسف حتى ابيضّت عيناه، ورغم ذلك، ظل كظيمًا، كاتمًا لحزنه، لا يشتكي إلا لله، لا يعاتب أحدًا، بل قال:

{ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ } **وكرر بثقة:** { وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ }

- هذا الموقف يعلّمنا أن البكاء لا ينافي الرضا، وأن الحزن لا يناقض الإيمان، بل هو من طبيعة البشر، حتى الأنبياء. فالنبي ﷺ بكى عند وفاة ابنه إبراهيم، وقال:

"إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا."

فلا تنهَ أحدًا عن البكاء، لا تحرمه من هذه الرحمة التي جعلها الله في قلبه.

حين يعاتبك الناس على حزنك، فإنهم يجهلون حجم ألمك. هم أحيانًا أنفسهم من صنعوا الجرح، ثم يلومونك على دمائك. "آلموه ثم لاموه لما تألّم!"، كما حدث مع يعقوب عليه السلام، لم يرحموا دمعه، ولم يواسوه في فقد بصره، بل قالوا له:

{ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ }

- لكن يعقوب لم يعبأ بهم، بل لجأ إلى من لا يُخيّب من رجاه، إلى الله سبحانه.

- وهكذا فعلت السيدة عائشة رضي الله عنها في محنتها، لما يئست من الناس، رفعت نظرها إلى السماء وقالت: { فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ }

فجاء الفرج من السماء بآيات تتلى.

وكذا خولة بنت ثعلبة، لما اشتكت أمرها لله، قال تعالى:

{ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ }

فنزل الحل، وتبدل الحال.

والنبي ﷺ نفسه، لما اشتد عليه الأذى في الطائف، لم يجد ملجأ إلا إلى الله، فقال:

"اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس..."

- فجاءت بعدها رحلة الإسراء والمعراج، ثم الهجرة، وبدأ الفرج يتتابع.

- الشكوى الصادقة إلى الله هي مفتاح الفرج، هي العبادة الخفية التي يحبها الله، وهي التي من أجلها يُقدِّر الابتلاء على عباده. الشكوى لغيره مذلّة، ولكن الشكوى له قوة وكرامة.

وإذا رأيت قلبك رق، ودمعك نزل، وجوارحك خشعت، فاعلم أن الله قد سمع شكواك.

فالطمأنينة التي تنزل بعدها ليست من الأرض، بل من عند الله.

- فاجعل ضعفك بين يدي الله، تجد منه قوة تُدهشك. كلما عرفت ربك، عرفت أن لا أحد يستحق أن تشتكي له سواه.

فهو الذي قال: { أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ }

- واعلم أن من أنزل حاجته بالله قُضيت، ومن أنزلها بغيره لم تُقضَ.

وها هو يعقوب عليه السلام يقول أخيرًا: { أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

ليُثبت لهم أن التوكل على الله، والشكوى إليه، والصبر عليه، ليست ضعفًا، بل قمة القوة، وهي بداية الطريق إلى الفرج.

فاللهم إنّا نشتكي إليك، ونفوض أمرنا إليك، فارزقنا صدق التوكل، ولذة المناجاة، وسرّ الطمأنينة، واجعلنا ممن إذا اشتكى، اشتكى إليك، وإذا دعا، دعاك، وإذا بكى، بكى بين يديك.

آمين يا رب العالمين.

"سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك".